سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ كما تُصَوِّرُها سورةُ العصر

*يسرى أحمد البيرودي**

ملخص

اخترت سورة العصر للبحث لما حوته من معاني جليلة شملت جميع علوم الدين رغم قصرها، فقد افتتحت بالقسم بالزمان الذي يمر من عمر الانسان، وأنه في خسران مبين، إن لم يتنبه ويعمر كل لحظة من عمره بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواص بالصبر، وفيها من العبر التنبيه إلى سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور والأزمان.

الكلمات الدالة: سورة العصر، تفسير، سنن ربانية.

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة بالحق المبين، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد، فإن القرآن العظيم هو المعجزة الخالدة التي تخاطب العقول إلى يوم الدين، إذ إنَّ المتأمل في آياته الباهرة، ليجد في ثلاث جمل منها منهج حياة تحيى الإنسانية فيه بسعادة وأمان، وفيها من العبر التنبيه إلى سنة الله في خلقه، التي لا تتغير ولا تتبدل منذ أن خلق الله الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تلك هي سورة العصر.

وفي هذا البحث الموسوم بـ**(سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ كما تُصَوِّرُها سورةُ العصر)** اخترته محاولة التوصل إلى الأهداف الآتية:

1. الوقوف على معنى القسم الذي افتتحت به السورة ومعرفة السر الرباني الذي أراده الله من وراء هذا القسم.
2. تفسير وبيان معاني الآيات الكريمة تفسيرا تحليليا بيانيا.
3. بيان سنة من سنن الله في خلقه.

منهج البحث

استعنت بما تيسر لي الرجوع إليه من كتب التفسير، وعلوم القرآن، وغيرها من المراجع المتعلقة بالبحث، مع توثيق جميع النقول والتعليق عند الحاجة إلى ذلك، وتخريج الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية، إلى جانب تخريج الأحاديث الواردة في البحث، والحكم عليها من خلال أقوال المحدثين الثقات، والجمع بين المأثور والرأي، والدراسة التحليلية والموضوعية، والاستفادة من كتب التفسير القديمة والحديثة، والترجيح بين الآراء عند التعارض، والتوفيق بين الأقوال ما أمكن، وذكر بعض النكات البلاغية في حدود ما يخدم التفسير، وإبراز المناسبات بين السورة وسابقتها ولاحقتها، وبين المقسم به والمقسم عليه وبين آيات السورة، وبيان وحدتها الموضوعية.

الدراسات السابقة

بعد البحث عن كتاب أو بحث مستقل في تفسير هذه السورة وجدت كُتَيبًا بعنوان (ربح أيام العمر في تدبر سورة العصر)، للدكتور سليمان اللاحم: كتابٌ ذكر فيه المؤلف طريق الربح والنجاة والسعادة من خلال تدبر سورة العصر، وسار فيه على النحو الآتي: بيَّن معاني الآيات ومفرداتها وجملها، ثم أتبَعَ ذلك بذكر الفوائد والأحكام، ثم ختم الكلام على السورة بوقفة تأمُّل أرشد فيها الإنسان لأن يكون ذكيا فطنا في استثمار وقته في طاعة الله، بالتزام أوامره واجتناب نواهيه. ووجدتُ كُتَيبًا لأبي الحسن هشام المحجوبي ووديع الراضي بعنوان (طلوع البدر في تفسير سورة العصر) حيث تحدثا فيه عن تفسير سورة العصر بشكل موجز، وذلك ببيان معاني الآيات ومفرداتها باختصار شديد، وهناك بحث بعنوان(سورة العصر أسرار بيانية ودلالات تربوية، د. أحمد فريد أبو هزيم) منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، سنة (2009)العدد (76) وقد تحدث في هذا البحث عن بلاغة هذه السورة وبيانها، وأنها رغم قصر آياتها حوت منهجا ربانيا متكاملا، وكيف أن على الانسان أن يعيش في ظل مقومات هذا المنهج العظيم، الا أن بحثي هذا الموسوم بـ(سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ كما تُصَوِّرُها سورةُ العصر) تحدثت فيه عن السنة الإلهية

* قسم الفقه وأصوله، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2016/6/30، وتاريخ قبوله 2016/8/1.

© 2018 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

التي بيَّنَتها السورة الكريمة، مستفيدة من الكتابات السابقة.

وجمعت فيه بين أقوال المفسرين العظماء، مضيفة بعض التوضيحات والاستنباطات التي تبرز أهمية هذه السورة، راجية النفع والفائدة والله ولي التوفيق.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكونَ في مقدمة وتمهيد ومبحثين، وذلك على النحو الآتي:

مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث.

التمهيد: التعريف بسورة العصر

المبحث الأول: القسم، والعبرة من وراء هذا القسم، وفيه مطلبين

المطلب الأول: القسم.

المطلب الثاني: العبرة من وراء هذا القسم.

المبحث الثاني: حقيقة الخسران وأسبابه، وفيه مطلبان.

المطلب الأول: حقيقة الخسران.

المطلب الثاني: أسباب الخسران.

المبحث الثالث: شروط النجاة من الخسران، والتنبيه إلى سنة الله في خلقه، وفيه مطلبان

المطلب الأول: شروط النجاة من الخسران.

المطلب الثاني: التنبيه إلى سنة الله في خلقه.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.

{وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}**[العصر:1_3]**

التمهيد

التعريف بسورة العصر

مكية السورة ومدنيتها:

سورةُ العصر مكية في قول ابن عباس وابن الزبير والجمهور، وإطلاق جمهور المفسرين، ومدنية في قول مجاهد وقتادة ومقاتل. وغالب التفاسير تذكر أنها مكية وقيل مدنية، لكن سياق الآيات، والموضوع الذي تتحدث عنه، وقصرها، كل ذلك من ضوابط القرآن المكي وأسلوبه، يُضافُ إلى ذلك أن السيوطي لم يذكرها في عداد السور المختلف فيها [1].

وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الانشراح وقبل سورة العاديات، وآياتها ثلاث آيات، وهي إحدى سور هنّ أقصر السور آيات: العصر، والكوثر، والنصر[2]، وهي أربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً.

مناسبة السورة لما قبلها وما بعدَها

لما بيّن سبحانه في السورة المتقدمة أن الإنسان يفني عمره في الاشتغال بأمور الدنيا وملهياتها، وذلك بقصور نظرة وحصر إدراكه، بزينتها ومتاعها ونعيمها، والتنعم والتلذذ بذلك المتاع والنعيم، وأن الإنسان مسؤول بما شهد به، حيث ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعداً برؤية الجحيم، فكان ساكن هذه الدار في غاية الخطر، وكان نعيمه في غاية الكدر[3]، أراد أن يبين في هذه السورة الكريمة ما يجب الاشتغال به من الإيمان والعمل الصالح الذي هو حظ الآدمي من جهة الكمال، ومن التواصي بالخيرات وكف النفس عن المناهي وهو حظه من جهة الإكمال[4]، حتى لا يكون من هؤلاء الخاسرين الذي توعدهم بالجحيم، ويكون نعيمه في غاية السعادة والهناء[5]. ولقد تحدث الإمام السيوطي في كتابه تناسق الدرر عن السياق العام لهذه السورة الكريمة فقال: "وسورة (ألهاكم) واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها، كأنه لما قال هناك: {فأمه هاوية}، قيل لم ذلك؟ فقال لأنكم {ألهاكم التكاثر} فاشتغلتم بدنياكم وملأتم موازينكم بالآثام، ولهذا عقبها بسورة (العصر) المشتملة على أن الإنسان لفي خسر بيان لخسارة الدنيا ونماء تجارة الآخرة، ولهذا عقبها بسورة (الهمزة) المتوعد فيها من { جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ } فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع وحسن اتساقها"[6].

سِرُّ تسمية السورة بهذا الاسم والمحور الأساسي الذي تدورُ حوله:

مدار الحديث في هذه السورة يدور حول التعريف بالقيمة الحقيقية لوقت الإنسان، وأن العبرة في حياته إنما هي بنوع المساعي التي يسعى فيها والتصرفات التي يتصرفها، خيراً أو شراً، إصلاحاً أو فساداً، في الزمن الذي يقطعه الإنسان في حياته، وتقع فيه جميع تصرفاته، إذ أقسم عز وجل بهذا الزمن بقوله: (والعصر) الذي هو مفرد العصور، وجاء في آية أخرى لفظة الدهر الذي هو مفرد الدهور، في أول الإنسان قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا} [الإنسان:1]، وقد جاءت تسمية السورة بالقسم بهذا الوقت الذي هو أخطر شيء في حياة الانسان وهو رأس ماله، والإنسان في حقيقته بضعة أيام؛ إذ هو مجموعة من الأيام والسنوات والشهور، فإذا انقضى بعضها انقضى بعض منه، فإذا لم يحسن إنفاق الوقت فقد خسر خسراناً مبيناً، لماذا؟ لأن الآخرة، تلك الحياة الأبدية يتحدد مصيره فيها بحسب إنفاق الوقت في هذه الحياة الدنيا، فإما أن ينفق الوقت في طاعة الله عز وجل، وفي معرفته، وفي الاستقامة على أمره، وفي الأعمال الصالحة التي يتقرب بها إليه، وإما أن ينفقه إنفاقاً رخيصاً ليس بعده من طائل عندئذ تكون الخسارة محققة. وفي ذلك اشارة إلى سنة من سنن الله الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل

منذ أن بعث الله آدم عليه السلام خليفة في الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي أن من يتق الله ويعمر وقته في الإيمان والعمل الصالح فهو في فلاح وسعادة في الدنيا والآخرة، ومن لم يعمر وقته الذي يمر من عمره في الايمان والعمل الصالح فهو في شقاء وخسارة في الدنيا والآخرة.

عظمة هذه السورة ومكانتُها

هذه السورة العظيمة تبدي لنا روعة الإعجاز، وبلاغة الدلالة والبيان رغم ما في هذه السورة من إجمال وإيجاز، فآياتها الثلاث يتمثل فيها منهج كامل للحياة البشرية كما يريده الإسلام، وتبرز معالم التصور بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة، إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار، وتبين سنة الله في خلقه في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله[7].

ولأهمية هذه السورة عظيم معانٍ، فقد اتخَذَّها أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِعَارًا لَهُمْ فِي مُلْتَقَاهُمْ، فكان الرجلان من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، إذا التقيا لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها[8]. ثم يسلّم أحدهما على الآخر. وقال الشافعي: "لو تدبر الناس في هذه السورة لوسعتهم"[9]، وفي رواية: "لو لم ينزل على الناس إلا هي لكفتهم"، وقال غيره: "إنها شملت جميع علوم القرآن"[10].

المبحث الأول

القسم، والعبرة من وراء هذا القسم.

المطلب الأول: القسم، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ}[العصر:1]

الواو: واو القسم، والعصر: جار ومجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره والعصر: قسم من الله عزّ وجل، ولا يقسم الله بالشيء الا لعظمته وأهميته، واقامة الحجة الدامغة والدليل القاطع على المقسم عليه ليتنبه السامع ويفيق من غفلته.

وللعلماء في تحديد معنى العصر عدة أقوال:

القول الأول:

أنَّ المرادَ بـ(العصر) الوقت ما بين آخر وقت الظهر إطلاق لفظ العصر على الوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس،

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقه الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم. وهي من هذا الوجه كالقسم بالضحى، وبالليل والنهار، والفجر من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية.

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجنّاتهم وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه، وفيه يتحفز الناس للاتجاه على بيوتهم لمبيتهم والتأنيس بأهليهم وأولادهم، وهو من النعمة أو النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم، قَالَ الْحَسَن:" إِنَّمَا أَقْسَمَ بِهَذَا الْوَقْتِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْأَسْوَاقَ قَدْ دَنَا وَقْتُ انْقِطَاعِهَا وَانْتِهَاءُ التِّجَارَةِ وَالْكَسْبِ فِيهَا، فَإِذَا لَمْ تَكْتَسِبْ وَدَخَلْتَ الدَّارَ وَطَافَ الْعِيَالُ عَلَيْكَ يَسْأَلُكَ كُلُّ أَحَدٍ مَا هُوَ حَقُّهُ فَحِينَئِذٍ تَخْجَلُ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ، فَكَذَا نَقُولُ: وَالْعَصْرِ أَيْ عَصْرِ الدُّنْيَا قَدْ دَنَتِ الْقِيَامَةُ، وَأَنْتَ بَعْدُ لَمْ تَسْتَعِدَّ وَتَعْلَمْ أَنَّكَ تُسْأَلُ غَدًا عَنِ النَّعِيمِ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ فِي دُنْيَاكَ، وَتُسْأَلُ فِي مُعَامَلَتِكَ مَعَ الْخَلْقِ وَكُلُّ أَحَدٍ مِنَ المظلومين يَدَّعِي مَا عَلَيْكَ فَإِذًا أَنْتَ خَاسِرٌ، وَنَظِيرُهُ:قوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُون}[الأنبياء:1] [11].

وقيل: "إنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة، فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء وتقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل، ثم إذا لم يحكم الحاكم عقب الشاهدين عدّ خاسراً فكذا الإنسان الغافل عنها في خسر، وقيل إنه أقسم بهذا الوقت لأنه معظَّم، والدليل عليه قوله عليه السلام: "من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة"[12]. فَكَمَا أَقْسَمَ فِي حَقِّ الرَّابِحِ بِالضُّحَى فَكَذَا أَقْسَمَ فِي حَقِّ الْخَاسِرِ بِالْعَصْرِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَقْسَمَ بالضحى في حق الربح وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وهاهنا فِي حَقِّ الْخَاسِرِ تَوَعَّدَهُ أَنْ أَمْرَهُ إلى الْإِدْبَارِ، ثُمَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ بَعْضُ النَّهَارِ بَاقٍ فَيَحُثُّهُ عَلَى التَّدَارُكِ فِي الْبَقِيَّةِ بِالتَّوْبَةِ، وَعَنْ بَعْضِ السَّلَفِ: تَعَلَّمْتُ مَعْنَى السُّورَةِ مِنْ بَائِعِ اللِّجْمِ كَانَ يَصِيحُ وَيَقُولُ: ارْحَمُوا مَنْ يَذُوبُ رَأْسُ مَالِهِ، ارْحَمُوا مَنْ يَذُوبُ رَأْسُ مَالِهِ فَقُلْتُ: هَذَا مَعْنَى: "إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ يَمُرُّ بِهِ الْعَصْرُ فَيَمْضِي عُمُرُهُ وَلَا يَكْتَسِبُ فَإِذَا هُوَ خَاسِرٌ "[13].

القول الثاني:

وهو قول مقاتل: الصلاة المؤقتة بوقت العصر وهي صلاة معظمة، فقد أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها، لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله عليه الصلاة والسلام: "شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر..."[14]، ولما في مصحف حفصة: والصلاة الوسطى صلاة العصر، وقيل هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: {حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ

الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِين}[البقرة:238]، وفي قوله تعالى: {تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ} [المائدة:106]

إنها صلاة العصر، وكما رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحافظة عليها فقد حذّر من تركها، فعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم:"من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله"[15]، أي نقص وهلك، وورد في الحديث الصحيح: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم..."، فذكر "رجل حلف يميناً فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي ما لم يُعط"[16].

فمن هذا المنطلق ذكر بعض المفسرين أن المراد بـ {العصر} صلاة العصر، أقسم بها تعالى اعتناء بشأنها وتوجيها لأمة الإسلام وتذكيراً لهم بهذه الصلاة التي يغفل عنها بعض الناس لانشغالهم بتجارتهم أو لخلودهم إلى الراحة من أعمالهم كما أن هذه الصلاة يحصل بها ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يختم العمل فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها، فأقسم تعالى بهذه الصلاة تفخيماً لشأنها[17]

القول الثالث:

أنَّ المرادَ بـ(العصر) المدة المعلومة لوجود جيل من الناس أو ملك أو نبي أو دين، ويُعيّن بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية، فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا، ويكون المعني به عصر النبي صلى الله عليه، فَالْقَسَمُ بِهِ كَالْقَسَمِ بِحَيَاتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَعَمْرُكَ} [الْحجر: 72]. قَالَ الْفَخْرُ الرازي[18]: "فَهُوَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِزَمَانِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَبِمَكَانِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ} [الْبَلَدِ: 2] وَبِعُمْرِهِ فِي قَوْلِهِ: {لَعَمْرُكَ} [الْحِجْرِ: 72]، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَعَصْرِكَ وَبَلَدِكَ وَعُمُرِكَ، وَذَلِكَ كُلُّهُ كَالظَّرْفِ لَهُ، فَإِذَا وَجَبَ تَعْظِيمُ حَالِ الظَّرْفِ فَقِسْ حَالَ الْمَظْرُوفِ، ثُمَّ وَجَّهَ الْقَسَمَ، كَأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَضَرْتَهُمْ وَدَعَوْتَهُمْ، وَهُمْ أَعْرَضُوا عَنْكَ وَمَا الْتَفَتُوا إِلَيْكَ، فَمَا أَعْظَمَ خُسْرَانَهُمْ وَمَا أَجَلَّ خِذْلَانَهُمْ!".

ويجوز أن يراد به زمان حياته صلى الله عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة–أي عصر– الإسلام كله– ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار العصر من النهار، يريد بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس"[19]، وشرفه لكونه زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وأمته التي هي خير أمة أخرجت للناس ولا يضره تأخيره كما لا يضر السنان تأخره عن أطراف مرانه، والنواة تأخره عن أطراف أغصانه[20].

وقال أبو السعود: "أقسم تعالى بعصر النبوة لظهور فضله على سائر الأعصار".[21]

القول الرابع:

قول ابن عباس، وهو أنَّ المرادَ بـ(العصر) الدهر أقسم عزّ وجل به لاشتماله على أصل العجائب، ولذا قيل له أبو العجب، وقد أقسم الله عز وجل به تعظيماً له، إلا أن الزمان في نفسه ليس مما يذم ويسب، كما اعتاد الناس أن يقولوا زمان مشؤوم، وقت نحس، ودهر سوء وما يشبه ذلك، بل هو عادٌّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات، وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع فكيف يُذم في ذاته وإنما قد يذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة[22] من قبل الإنسان، إذ إنه أضاف الخسران بعد ذلك إليه إشعاراً بأنها صفة له لا للزمان كما يقول الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا [23]

وقد رجَّح الإمام ابن عاشور أنَّ المراد بـ(العصر) في هذه الآية عصرُ الإسلام حيث قال: "ومُنَاسَبَةُ الْقَسَمِ بِالْعَصْرِ لِغَرَضِ السُّورَةِ عَلَى إِرَادَةِ عَصْرِ الْإِسْلَامِ ظَاهِرَةٌ فَإِنَّهَا بَيَّنَتْ حَالَ النَّاسِ فِي عَصْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَمَنْ آمَنَ وَاسْتَوْفَى حَظَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ، وَيُعْرَفُ مِنْهُ حَالُ مَنْ أَسْلَمُوا وَكَانَ فِي أَعْمَالِهِمْ تَقْصِيرٌ مُتَفَاوِتٌ، أَمَّا أَحْوَالُ الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فَكَانَتْ مُخْتَلِفَةً بِحَسَبِ مَجِيءِ الرُّسُلِ إِلى بَعْضِ الْأُمَمِ، وَبَقَاءِ بَعْضِ الْأُمَمِ بِدُونِ شَرَائِعَ مُتَمَسِّكَةٍ بِغَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنَ الشِّرْكِ أَوْ بِدِينٍ جَاءَ الْإِسْلَام لنسخه مِثْلَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين}[آل عمران:85].

أقول: إنَّ تخصيص (العصر) بعصر الاسلام لا دليل عليه؛ وسياق الآيات لم يرد فيه تخصيص لهذا المعنى، والذي أراه أن يكون معنى (العصر) على إطلاقه أي إنه الوقت في أي زمان كان، سواء أكان في وقت العصر إلى الغروب، أم في وقت صلاة العصر، أم في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، أو في وقت الليل والنهار في أحد الأقوال[24]، وهذا الذي رجحه الإمام الشنقيطي رحمه الله حيث قال[25]:" وَالَّذِي يَظْهَرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ: أَنَّ أَقْرَبَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا قَوْلَانِ: إِمَّا الْعُمُومُ بِمَعْنَى الدَّهْرِ لِلْقِرَاءَةِ الشَّاذَّةِ، إِذْ أَقَلُّ دَرَجَاتِهَا التَّفْسِيرُ، وَلِأَنَّهُ يَشْمَلُ بِعُمُومِهِ بَقِيَّةَ الْأَقْوَالِ، وَإِمَّا عَصْرُ الْإِنْسَانِ أَيْ عُمُرُهُ وَمُدَّةُ حَيَاتِهِ الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْكَسْبِ وَالْخُسْرَانِ لِإِشْعَارِ السِّيَاقِ، وَلِأَنَّهُ يَخُصُّ الْعَبْدَ فِي نَفْسِهِ مَوْعِظَةً وَانْتِفَاعًا، وَيُرَجِّحُ هَذَا الْمَعْنَى مَا يَكْتَنِفُ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ سُورِ التَّكَاثُرِ قَبْلَهَا، وَالْهُمَزَةِ بَعْدَهَا، إِذِ الْأُولَى تَذُمُّ هَذَا التَّلَهِّيَ وَالتَّكَاثُرَ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ، حَتَّى زِيَارَةِ الْمَقَابِرِ بِالْمَوْتِ، وَمَحَلُّ ذَلِكَ هُوَ حَيَاةُ الْإِنْسَانِ وَسُورَةُ الْهُمَزَةِ فِي نَفْسِ

الْمَعْنَى تَقْرِيبًا، فِي «الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» فَجَمْعُ الْمَالِ وَتَعْدَادُهُ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَحَيَاتُهُ مَحْدُودَةٌ، وَلَيْسَ مُخَلَّدًا فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ وَعَمَلَ الصَّالِحَاتِ مُرْتَبِطٌ بِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَتَكُونُ كُلُّ الْإِطْلَاقَاتِ الْأُخْرَى مِنْ إِطْلَاقِ الْكُلِّ، وَإِرَادَةِ الْبَعْضِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ".

المطلب الثاني: العبرة من وراء هذا القسم

الوقت هو أخطر شيء في حياة الانسان وقد اقسم الله سبحانه وتعالى به_ وحق له تجلت قدرته أن يقسم بأي شيء _ليبين اهميته وعظمته، فقد أقسم هنا في الوقت الذي يمضي من عمر الانسان الذي يتقلب بين جنباته، فان لم يتنبه لأهمية وعظمة هذا الوقت ولم يعمره في الايمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فهو غارق في الخسران العظيم، واذا تأملت معي أيها القارئ الكريم الأقسام التي جاءت في الأوقات تجد أن الله سبحانه قد أقسم في جميع الأوقات التي نعيشها، لكنه خصص بعض هذه الاوقات لأهميتها البالغة في حياتنا وللدلالات العظيمة التي سبق ذكرها فقد أقسم في وقت الضحى في قوله (والضحى) (الضحى:1)، وهنا في وقت العصر، واقسم في وقت الليل والنهار بقوله: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى}[الليل:1-2]، وأقسم بالصبح: بقوله: {وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّس}[التكوير:18]، وما هذه الأقسام الا لينبهنا إلى أهم وأخطر قضية في حياة البشرية وهي المحافظة على هذه الاوقات واعمار الأرض بها؛ اذ لا تتحقق قضية الاستخلاف في الارض الا في المحافظة على هذه الاوقات كلها واستغلال كل لحظة منها صبحا ضحى عصرا ليلا ونهارا من أجل الاصلاح في هذه الارض، وما أحوجنا في هذه الأيام، وقد وصلت الأمة الإسلامية إلى ما وصلت اليه من الفساد والذل والهوان، ما أحوجنا إلى أن نعيد النظر في كيفية استغلال أوقاتنا في اصلاح الأمة الاسلامية، والعمل ليلا ونهارا في هذه الأوقات جميعها من أجل الغاية التي وجدنا من أجلها واعطاء الأمانة التي حملناها حقها، وتحقيق الخلافة في الأرض كما يحب ربنا ويرضى، وما أحوجنا إلى أن نتقي السنة الإلاهية التي يمكن أن تلحق بالبشرية جمعاء فتعيش في أشد أنواع العذاب والخسران إن هي لم تلتزم بالشروط البينة الواضحة التي ذكرتها الآية الثالثة في هذه السورة والتي تمثل سبب سعادة البشرية جمعاء في جميع أحوالها في كل زمان ومكان.

المبحث الثاني
حقيقة الخسران، وأسبابه

المطلب الأول: حقيقة الخسران

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلإِنسَٰنَ لَفِي خُسرٍ ٢﴾[العصر:2]

هذا جواب القسم جاء ليؤكد بالقسم تلك القضية وهي أن جميع من يطلق عليه اسم الإنسان ممن هو معهود للخطاب وهو الإنسان العاقل البالغ (المكلف) خاسر في أعماله ضرباً من الخسران إلا من يستثنيه من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وتعريف (الإنسان) تعريف الجنس مراد به الاستغراق العهدي الذي عهد عند المخاطبين، وهذا الاستغراق لا ينافي الشمول والعموم، فهذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل، فالاستغراق بأل إنما هو لما عهد عند المخاطبين من الأفراد يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقروناً بها، ولو قيل: "كل إنسان في خسر إلا الذين آمنوا" لم يصح لأن من الإنسان الصبي الذي لا يميز وهو لا خسران له ولا ربح[26]، والمقصود به الإنسان الغافل الذي لم يعرف ربه، الإنسان الكافر، الإنسان الجاحد، هذا الذي نسي الله، هذا الذي أدار ظهره للدين، هذا الذي اتخذ القرآن مهجوراً، هذا الذي أضاع الصلاة واتبع الشهوات، هذا في خسارة ولو بلغ قمة المجد، والغنى، والقوة، والعلو في الأرض، ولو جمع حطام الدنيا إنه لفي خسر، بنص كلام خالق الكون، بنص كلام مبدع الكون، الذي خلقك يبين لك، أن الإنسان لفي خسر ما لم يفعل كذا وكذا

و(خُسْر): مصدر وهو ضد الربح في التجارة، والخُسْرُ هو النقصان والاضمحلال وذهاب رأس المال، والغبن والضلال خَسِرَ خَسْراً وخُسًرا وخُسرانا وخَسارة وخَسارا، فهو خاسر وخَسِر: أي ضل، والخَسار والخَسارة: الضلال والهلاك، والخَسر والخُسران: النقص، وأخسرته أنقصته، قال تعالى في سورة المطففين (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) {3}[27]، قال الأخفش (في خُسْر) أي في هلكة، وقال الفراء عقوبة وقال ابن زيد لفي شر[28].

وكل هذه المعاني مرادة وتحتمل معنى الخسر، وسر التعبير بـ(في) التي تفيد الظرفية المجازية، شبهت ملازمة الخسران بإحاطة الظرف بالمظروف، فكانت أبلغ من أن يقال: "إن الإنسان لخاسر" فقوله (لَفِي خُسْرٍ) يفيد أنه كالمغمور في الخسران، وأنه محاط به من كل جانب، ، وقد أكَّد هذا القسم بجملة مؤكدات: وهي حرف (إنّ) الذي يفيد التأكيد، واللام المزحلقة إلى الخبر، والجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام.

ونكّر (خُسْر) والتنكير يجوز أن يكون للتعظيم والتهويل فهو في خسر عظيم هائل فادح لا يعلم مداه إلا الله وهو خسران أعظم من خسارة المال والأهل والجاه والسلطان، ويجوز أن يكون للتنويع أي نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان[29]، سواء أكانت الخسارة مادية أم معنوية، في الدنيا أم في الآخرة فنتيجة الخسارة، الهلاك في الدنيا والعقوبة في الآخرة، فأي خسران في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم

التي لا ينتفعون بها في الآخرة، بل ربما تضر بهم إذا حلّوا بالساهرة فهو في خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصل في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم.

وقد احتاجت هذه القضية كل هذه المؤكدات لغرابتها وبعدها عن تصورات الناس، فحالهم حالة من هو شاك أو منكر لها، أو أنه غير ملتفت أو متنبه إليها، فأكدها ربنا، حتى يجعلنا نمعن التدبر ونتنبه ونبحث في واقع وجود الإنسان وحياته ووظيفته فيها، فنلاحظ أن رأسماله في حياته هو لحظات عمره وما وهبه الله من طاقات مادية ومعنوية يستطيع أن يعمل بها خيراً أو شراً أو يعطلها ويضيعها ويتلفها بلا فائدة يجنيها منها وهذا هو غالب الإنسان لا ينفك عن خسر، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره[30].

وللإمام الرازي في معنى هذه الآية قول رأيت من المفيد ذكره والتعقيب عليه فهو يرى رحمه الله أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران؛ ذلك لأن مراتب الخضوع والخشوع لله فمهما جاء بطاعة على وجه يمكن أن يأتي بها على وجه أحسن، كل حسب علمه بجلال الله وقهره، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران [31].

أقول إن كان يقصد من قوله الحث على الإتيان بالطاعة على أكمل وجه وأحسنه كان به، أما إن كان يقصد أنَّ مجرد الإتيان بالطاعة فيه نوع خسران ذلك لأن الإنسان مهما عمل من طاعات على أتم وجه وأحسنه، لا يؤدي حق الله فيه، لأن فضل الله علينا عظيم مهما بلغنا من الطاعات والقربات فلا نقدر أنْ نوفي حق الله وفضله، فلو لم ينفك ألبتة عن نوع خسران لما استثنى اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات منه، ويؤيده قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون}[التغابن:16]

وهذا الخسر متفاوت فأعظمه وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها، وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبها الكبائر والفواحش وهو ما فسر به قوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ }[هود:114]، وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينة مقام الإنذار والوعيد، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة، فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا[32]، قال تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [آل عمران:196_197]

المطلب الثاني: اسباب الخسران.

وردت كلمة (خُسْر) ومشتقاتها في تسعة وستين موضعا في القرآن العظيم، يمكن تقسيم أسباب الخسران إلى نوعين حسب القضايا التي تتحدث عنها الآيات كالآتي:

النوع الأول: أسباب توجب الخسران المطلق الذي يستوجب الخلود في النار، ومن ذلك

1-الشرك والكفر بالله وتكذيب آياته، فقد قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين}[الزُّمَر:65]

الكفر والردة وعدم الإيمان بالقرآن العظيم أو بآياته والإعراض عن الإسلام، قال تعالى:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون}[البقرة:121] وقال أيضا: {وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين}[المائدة:5]، {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُون}[الأنعام:20]، وقال: {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِين}[يونس:95]، وقد عد الذي يتخذ غير الإسلام دينا من الخاسرين فقال: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين}[آل عمران:85]

2-التكذيب بلقاء الله، قال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُون}[الأنعام:31].

وأما النوع الثاني من أسباب الخسران، فهو أسباب توجب مطلق الخسران الذي يستحق فيه العبد العقوبة بسبب ذنوبه ويكون تحت مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه بفضله ورحمته، ومنه:

1-اتخاذ الشيطان وليا من دون الله، قال تعالى: {وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا}[النساء:119]، وقال أيضا: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُون}[المجادلة:19]

2-قتل المسلم لأخيه المسلم، قال تعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ

قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِين}[المائدة:30]

3-الأمن من مكر الله، قال تعالى: {أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون}[الأعراف:99].

4-الظن السيء بالله، قال تعالى: {وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِين}[فُصِّلَت:23]

5-مصاحبة القرين السوء، قال تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِين}[فُصِّلَت:25].

6-الغفلةُ عن ذكر الله، أو عدمُ المغفرة والرحمة منه سبحانه، ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون}[المنافقون:9]، وقال على لسان نوح عليه السلام: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِين}[هود:47]، وعلى لسان آدم وزوجه قال سبحانه: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين}[الأعراف:23].

في ختام هذا المطلب أقول: في هذه الآية عبرة ووعيد وتحذير، عبرة ووعيد لبيان أن الخسران الحقيقي هو أن يخسر الانسان نفسه في بعده عن منهج الله القويم، وتحذير من الاقتراب من أسباب الخسران التي نبه اليها القرآن العظيم حتى لا تتحقق فينا سنة الله ونذوق ويلاتها وعذابها كما حصل فيمن كان قبلنا.

المبحث الثالث

أسباب النجاة من الخسران، والسنة الالهية في السورة

المطلب الأول: شروط النجاة من الخسران

قال تعالى:{إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر:3] هذه الآية الكريمة تبين لنا روعة الإعجاز في بيان شروط النجاة وعدم الخسران.

فأول هذه الشروط التي تنجي صاحبها من عدم الخلود في النار، هو الإيمان وَالْإِيمَانُ لُغَةً التَّصْدِيقُ[33]، وَشَرْعًا الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ، فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، والذين آمنوا، هم الذين صدقوا بأصل الخير والشر، وصدقوا بالحسنى واعتقدوا اعتقاداً صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة، وبأن لأنفسهم وللعاملين حاكماً يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب، وأن لهم جزاء على أعمالهم الخير بالخير، والشر بالشر.

وهذه الآية تدل على أن العمل داخل فيما يقع عليه اسم الإيمان، فالإيمان عند أهل السنة إقرار في القلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، ولا خلاف بينهم أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل معا، وفي هذه الآية الرد على المرجئة الذين فصلوا العمل عن الإيمان فعندهم الإيمان اعتقاد بالقلب ونطق باللسان فقط، ولا يضر مع الإيمان ذنب.

وهي خلافاً لبعض المعتزلة الذين استدلوا على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لأنه لم يستثن فيها عن الخسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتعريف الإيمان عندهم أنه اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالجوارح لكن مرتكب الكبيرة يُسلب اسم الإيمان بالكلية ويخلد في النار[34]. وأجيب بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر، وأما على كونه مخلداً في النار فلا، كيف والخسران عام، فهو إما بالخلود إن مات كافراً، وإما بالدخول في النار إن مات عاصياً ولم يُغفر له، وإما بفوت الدرجات العاليات إن غُفر له[35]، وهي أيضاً رد على الخوارج الذين يكفرون مرتكب الكبيرة في الدنيا، ويرونَ أنه في الآخرة مخلد في النار لا يخرج منها، فتعريف الإيمان عندهم نفس تعريفه عند أهل السنة والجماعة، لكن يمكن أن نرد عليهم كما سبق الرد على المعتزلة.

(وعملوا الصالحات):

هذا هو الشرط الثاني من شروط النجاة من الخسران، عمل الصالحات

عمل الصالحات كان مقترنا للتصديق فتصديقهم هذا بالغاً من أنفسهم حداً أن يكمل إرادتهم، فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم، فهم يعملون الصالحات وهي الأعمال التي عدت بالتفصيل في القرآن الكريم وجماعها أن تكون نافعاً لنفسك، ولأهلك، ولقومك وللناس أجمعين.

بعيداً من أن تضر أحدًا إلا لكف ضرر أعظم منه[36]، فهؤلاء في تجارة لن تبور حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيالها من صفقة ما أربحها، ومنفعة جامعة للخير ما أوضحها، والمراد بالموصول هنا (الذين) كل من اتصف بعنوان الصلة، لا علي كرم الله وجهه وسلمان الفارسي رضي الله عنهما فقط كما يتوهم من اقتصار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الذكر عليهما، بل هما داخلان في ذلك دخولاً أولياً، ومثل ذلك اقتصاره في الإنسان الخاسر على أبي جهل وهو ظاهر، وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم[37] – أي الإيمان والعمل الصالح – والتعريف في قوله "الصالحات" تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بها بأمر الدين، وعمل الصالحات يشمل ترك السيئات، فالإيمان والعمل الصالح هما أول سببَيْنِ من أسباب الفوز

والفلاح، ودَلَّ على ذلك اسْتِثْنَاءُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ أَنْ يَكُونُوا فِي خُسْرٍ عَلَى أَنَّ سَبَبَ كَوْنِ بَقِيَّةِ الْإِنْسَانِ فِي خُسْرٍ هُوَ عَدَمُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ بِدَلَالَةِ مَفْهُومِ الصِّفَةِ. وَعُلِمَ مِنَ الْمَوْصُولِ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ هُمَا سَبَبُ انْتِفَاءِ إِحَاطَةِ الْخُسْرِ بِالْإِنْسَانِ.[38].

وعبر بالاسم الموصول لبيان أن حق هؤلاء أن يعرفوا بهذه الصفة وأن تكون السمة المميزة لهم هي الإيمان والعمل الصالح، وهذا يظهر أبلغ مما لو قال: "إلا المؤمنين والعاملين الصالحات"، فالإيمان والعمل الصالح قرينان لا ينفكان عن بعضهما بأي حال من الأحوال فقد ورد في القرآن ما يقارب من مائتي موضع قرن الله فيها الإيمان بالعمل الصالح، وكأن الله سبحانه يريد أن ينبهك يا أيها الانسان إلى ضرورة استغلال وقتك بالإيمان والعمل الصالح، فالإيمان وحده لا يكفي، متى آمنت؟ وما الوقت الذي خصصته كي تؤمن بالله؟ هل حضرت مجالس العلم؟ هل تفكرت في ملكوت السموات والأرض؟ هل تصفحت كتاب الله؟ هل عرفت أمر دينك؟ إذا كنت مؤمناً حقاً فمتى آمنت؟ ما الجهد الذي بذلته حتى أصبحت مؤمناً؟ على يد من تعلمت؟ أي كتاب قرأت؟ أي إنسان التقيت؟ وما هي الأعمال الصالحة التي قمت بها لتترجم حقيقة ما تعلمت؟ فالإيمان وحده لا يكفي، الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، يُقطع ويُلقى في النار. الإيمان وحده لا يقدم ولا يؤخر، فوالله لن يؤجر المرء حتى يعمل بما علم. كل علم وبال على صاحبه ما لم يعمل به، بنص قوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون}[الصف:3].

وهنا لفتة بيانية من المفيد ذكرها هنا وهي، أنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب – وهو الإيمان والعمل الصالح – ولم يذكر الحكم فما الفرق؟ أنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالتولي وهو عدم الإقدام على الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل[39]، أو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل وفي جانب الربح فصّل وبين، وهذا هو اللائق بالكرم الرباني وهذه هي عادة القرآن أنه في جانب الشر يجمل، وفي جانب الخير والحسن يفصل ويبين،

الشرط الثالث: {وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ }[العصر:3]

الوصية: بيان مقرون بنصح مؤكد بعهد، وليست مجرد بيان عابر ولا مجرد نصيحة باردة أو فاترة، بل هي نصح مشدد مؤكد بعهد[40]، والتواصي تشارك في توجيه الوصية بأن يوصي شخصان فأكثر بعضهم بعضاً[41]

وهذا بيان لتكميلهم لغيرهم، قد عطف على عمل الصالحات، التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات من باب عطف الخاص على العام للاهتمام به: لأنه قد يُغفل أو يُظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أن من العلم المأمور به، إرشاد المسلم غيره ودعوته إلى الحق فَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ يَشْمَلُ تَعْلِيمَ حَقَائِقِ الْهَدْيِ وَعَقَائِدِ الصَّوَابِ وَإِرَاضَةِ النَّفْسِ عَلَى فَهْمِهَا بِفِعْلِ الْمَعْرُوفِ وَتَرْكِ الْمُنْكَرِ [42]، فخصص هذين الأمرين بالذكر لأنهما حفاظ على الخير، ورأس كل أمر، والحق: هو البين الواضح الذي لا تلتبس في معرفته الأفهام، ولا تختلف في إدراكه الأذهان، ولا تتغير عن حبه إن أحبته القلوب، ولا تلتبس على السير إليه الأرواح، وهو ما في الكتاب والسنة، فإن ما سوى ما فيهما إن كان يعارضهما فهو باطل: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[الإسراء:81]، والله سمّى نفسه الحق، وسمّى دينه حقاً فقال: {يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِين}[النور:25]

وسمّى القرآن حقاً[43]، فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}[البقرة:119] {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِير}[فاطر:24]

فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ويمكنوه من قلوبهم، ثم يحمل الناس بعضهم بعضاً عليه، بأن يدعو كلٌّ صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا ينازع فيها العقل ولا يختلف فيها النقل، وأن يبعدوا بأنفسهم ويغيرهم عن الأوهام والخيالات التي لا قرار للنفوس عليها، ولا دليل يهدي إليها، ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل وأوهام، وهذا إطلاق للعقل من كل قيد مع اشتراط التدقيق في النظر لا الذهاب مع الطيش، والانخداع للعادة والوهم، ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه، فهو من الخاسرين بالنص الصريح في الآي الذي لا يقبل التأويل[44].

الشرط الرابع: {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر:3]

الصبر: هو قوة النفس على احتمال المشقة، وأقسام الصبر ثلاثة:

أولها: الصبر عن المعاصي التي تشتاق إليه النفس بحكم الجبلّة البشرية، وثانيها: الصبر على الطاعات التي يشق عليها أداؤها، وثالثها: الصبر على ما يبتلي الله تعالى به عباده من المصائب، والصبر المذكور داخل في الحق. ذكره بعده مع إعادة الجار والفعل.

– (أي الباء والتواصي) – المتعلق به؛ هو لإبراز كمال

العناية به وهو من باب عطف الخاص على العام، ويجوز أن يكون المراد من أقسام الصبر (الأول والثاني) عبارة رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الله تعالى، والثالث عبارة رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى: فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل أو ترك، بل هو تلقي ما ورد منه عز وجل بالجميل والرضا به باطناً وظاهراً[45].

ومن الصبر، الصبر على ما يلاقيه المسلم إذا أمر بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به أو من أذاهم بالقول كما يقول لآمره: هلاّ نظرت في أمر نفسك أو نحو ذلك.

وقد اشتمل قوله تعالى: (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة (في الحق)، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة (في الصبر).

والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكه لمن راض نفسه عليها، وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما تميل إليه، وفي الحديث: "حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات"[46]، وعن علي بن أبي طالب: "الصبر مطية لا تكبو"، وَأَفَادَتْ صِيغَةُ التَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَبِالصَّبْرِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُ حَيَاةِ الْمُؤْمِنِينَ قَائِمًا عَلَى شُيُوعِ التَّآمُرِ بِهِمَا دَيْدَنًا لَهُمْ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اتِّصَافَ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَصَبْرَهُمْ عَلَى الْمَكَارِهِ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَأُمَّتِهِ لِمَا يَقْتَضِيهِ عُرْفُ النَّاسِ مِنْ أَنَّ أَحَدًا لَا يُوصِي غَيْرَهُ بِمُلَازَمَةِ أَمْرٍ إِلَّا وَهُوَ يَرَى ذَلِكَ الْأَمْرَ خَلِيقًا بِالْمُلَازَمَةِ إِذْ قَلَّ أَنْ يُقْدِمَ أَحَدٌ عَلَى أَمْرٍ بِحَقٍّ هُوَ لَا يَفْعَلُهُ أَوْ أَمْرٍ بِصَبْرٍ وَهُوَ ذُو جَزَعٍ، وَقد قَالَ الله تَعَالَى تَوْبِيخًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ[47]: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}[البقرة:44] وَقَدْ جَاءَتْ آيَات فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ بِالْحَقِّ تَشْمَلُ الشَّرِيعَةَ كُلَّهَا، أُصُولَهَا وَفُرُوعَهَا، مَاضِيَهَا وَحَاضِرَهَا، مِنْ ذَلِكَ مَا وَصَّى اللَّهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ عُمُومًا، مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيب}[الشورى:13]

وَإِقَامَةُ الدِّينِ الْقِيَامُ بِكُلِّيَّتِهِ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ عَمَلَ الرُّسُلِ لِأُمَمِهِمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَنَفَّذَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُون}[البقرة:132]

وَمِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ يَعْقُوبُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون}[البقرة:133]

وإذا تأملنا في الآيات الكريمات يتبين لنا أنَّ فيها وعيدًا شديدًا، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسارة على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الشروط الأربعة، وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور، وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه، فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها الدعاء إلى الدين بالتضحية والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر، ومنه قوله تعالى: { وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور}[لقمان:17]، وهذا فيه اشارة سنة من سنن الله الالاهية التي لا تتغير ولا تتبدل وهي: ان لم يأخذ الإنسان على عاتقه هم الدعوة إلى الله، ويأخذ بيد إخوانه المؤمنين بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يكون من الخاسرين الذين لحقتهم سنة الله فيمن سبقهم من أقوام الأنبياء والرسل عليهم السلام عندما عصوا ربهم وتركوا واجبهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكان سبب هلاكهم وطردهم من رحمة الله، قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُون كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُون}[المائدة:78-79] فمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة عظيمة؛ لأن في تحقيقه مصلحة الأمة ونجاتها، وفي إهماله الخطر العظيم والفساد الكبير، واختفاء الفضائل، وظهور الرذائل، وقد أوضح الله جل وعلا في كتابه العظيم منزلته في الإسلام، وبين سبحانه أن منزلته عظيمة، حتى إنه سبحانه في بعض الآيات قدمه على الإيمان، الذي هو أصل الدين وأساس الإسلام، كما في قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُون}[آل عمران:110]

ولا نعلم السر في هذا التقديم، إلا لعظم شأن هذا الواجب، وما يترتب عليه من المصالح العظيمة العامة، ولا سيما في هذا العصر، فإن حاجة المسلمين وضرورتهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شديدة؛ لظهور المعاصي، وانتشار الشرك

والبدع في غالب المعمورة، وقد كان المسلمون في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه وفي عهد السلف الصالح يعظمون هذا الواجب، ويقومون به خير قيام، فالضرورة إليه بعد ذلك أشد وأعظم، لكثرة الجهل وقلة العلم وغفلة الكثير من الناس عن هذا الواجب العظيم. وفي عصرنا هذا صار الأمر أشد، والخطر أعظم، لانتشار الشرور والفساد، وكثرة دعاة الباطل، وقلة دعاة، ولأهميته وشدة حرص القرآن عليه وحتى تعيش الانسانية في سعادة وأمان وتتقي شر الدمار والخسران قدمه في على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، في قوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم}[التوبة:71]، اذا تأملت معي أيها القارئ الكريم في الآية الكريمة يتبين لدينا أن سبب رحمة الله للمؤمنين وفوزهم في الدنيا والآخرة هو قيامهم بهذا الواجب العظيم، وأن فاصلة الآية ختمت باسمين من أسماء الله الحسنى العظيمة، –والله عزيز حكيم– التي تشير إلى أن عزة هذا الدين تكون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، بالحكمة والموعظة الحسنة.

وقد حذر النبي الكريم من التهاون في هذا الواجب العظيم فقال صلى الله عليه وسلم:"والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله عز وجل أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم تدعونه فلا يستجاب لكم"[48]، ففي هذا الحديث يبين لنا نبينا الكريم تأكيدا لسنة الله التي وردت في هذه الآية العظيمة من سورة العصر

ودلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه، للذلك قرن به التواصي، وإنما قال: (وَتَوَاصَوْا) ولم يقل ويتواصون لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل[49]

المطلب الثاني: السنة الإلهية في السورة الكريمة

خلق الله سبحانه الإنسان لغاية العبادة، وجعله خليفة له في الأرض، وذلل له الكون وما فيه لأجل تحقيق هذه الغاية، فإن قابل الإنسان هذه النعم العظيمة، باللهو وعدم استغلال وقته بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فهو في خسران عظيم، وفي هلاك مبين، وسوف ينزل به العذاب من كل جانب؛ وهذا مصداقا لتحقق سنة الله في خلقه كما تحققت في قوم نوح، وفرعون، وعاد، وثمود وغيرهم، قال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}[الفرقان:37]، وقال سبحانه وتعالى في تحقق سنته في فرعون وأعوانه: {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِين.

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُون}[الأعراف: 136–137]، وقال في حق قوم صالح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُون قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُون وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُون قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُون وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُون فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِين فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُون}[النمل45–52]

هذه السنن الإلهية التي تحدثت عنها الآيات، هي سنن ثابتة قطعية لا تتغير ولا تتبدل، وذلك ليس إلا مصداقا لقوله تعالى: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}[فاطر:43]

وقد أصبحت هذه السنن جزءاً من مكونات العقل المسلم، التي إن فهمها حظي بالدنيا، وحظي بالآخرة، وهذه السنن ستساعدنا كثيراً في فهم آيات الله في كتابه المسطور وهو القرآن الكريم، وفي فهم آيات كتاب الله المنظور وهو الكون، ومما لا شك فيه أن كتاب الله المنظور وكتاب الله المسطور هما صنوان للدلالة على الله عز وجل.

إن الناظر إلى الأحداث الجسيمة والنوازل العظيمة التي أحاطت اليوم بالعالم عامة وبالأمة الإسلامية خاصة، لا يستغرب حدوثها ولا يفاجأ بها حينما يرجع إلى كتاب ربه وينطلق من توجيهاته في ضوء سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي فردا على حساب فرد، ولا مجتمعا على حساب مجتمع آخر؛ فالإذلال والهوان الذي تعاني منه الأمة الاسلامية اليوم ما هو الا تحقيقا للسنة الإلهية التي سطرها القرآن الكريم في آياته، كما تحققت سنته في الأقوام التي سبقت، عندما هدرت وقتها وضيعته في غضب الله، فخسرت كل النعم التي حباها الله بها، فنحن نشاهد آثار قرى عاد وثمود، وكيف أهلكهم الله تعالى، وبقيت معالمهم ومصانعهم عبرة حتى نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غشيانها وإتيانها، إلا أن يكونوا باكين معتبرين، يعرفون ما هذه السنة التي جرت على هؤلاء فيتجنبونها، وكذلك جثة فرعون مصر التي تطوف العالم اليوم ليتحقق فيه قوله تعالى {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ

خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون}[يونس:92]

واذا تأملت معي أيها القارئ الكريم طريق الدعوة إلى الله منذ نزول آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر ستلاحظ أنَّ هذه السورة الكريمة قد حوت على السنة الإلهية التي ذكرها الله تعالى في قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[طه:124] ففي هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى للإنسان أن عيشه في ضيق ونكد وهَمٍّ وغم وكد اذا أعرض عن منهج الله سبحانه، وهو في خسران عظيم دائم إنْ لم يحقق منهج الله الذي هو سر استمرار الحياة على سطح الأرض في سعادة وأمان، وقد لخص هذا المنهج في جملة واحدة بنظم بديع وبيان بليغ في قوله سبحانه { إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر:3]

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث الذي وقفت فيه على دقائق تفسير هذه السورة الجليلة العظيمة التي مع إيجازها شملت جميع علوم الدين، ووجهت البشرية إلى منهج حياة متكامل، تحظى من خلاله بالسعادة الأبدية، والفلاح في الدنيا والآخرة، وهو أن على الإنسان أن يستغل كل لحظة من وقته الذي ينقص من عمره المحدود، في طاعة الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشارت هذه السورة إلى سنة من السنن الإلهية، وهي أن الذي يعرض عن منهج الله القويم فهو في خسران عظيم، وفي كل آية من آيات هذه السورة عبرة وعظة، فهي تحذر الإنسان من الغرق في بحار الخسران، وذلك بأن يأخذ بلجام نفسه بالإيمان والعمل الصالح.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يأتي:

1- بيان أهمية الوقت، وأن عمر الانسان ما هو إلا جزء من هذا الوقت.

2- حقيقة الخسران أن يخسر الإنسان عمره في غير طاعة الله.

3- إن الربح والسعادة الحقيقية بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والصبر، وأن أي إنسان خاسر إلا من أخذ بهذا.

4- سنة الله في خلقه التي لا تتغير ولا تتبدل أن من يلتزم منهج الله القويم فهو في سعادة وربح إلى يوم الدين ومن يعرض عنه فهو في خسران عظيم.

5- من سنن الله الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فائز برحمة الله، ومن لم يفعل هذا فعليه لعنة الله وهو في خسران عظيم إلى يوم الدين.

هذا ما وفقني الله لكتابته فإن أحسنت فمن الله، وان أخطأت فمن نفسي، والله أسأل العفو والغفران.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(1) انظر، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، 40/1، وجامع البيان للطبرى 187/30 ومعالم التنزيل للبغوى 302/5 ومعانى القرآن للفراء 289/3 والجامع لأحكام القرآن للقرطبى 178/20 وتفسير القرآن العظيم لابن كثير 547/4 والبرهان للزركشى 193/1 وغيرهم.

(2) انظر عبد الرحمن حبنكة الميداني، معارج التدبر ودقائق التفكر ج1، ص 606.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج8، ص522.

(4) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ج6، ص 588؛ وانظر الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج30.

(5) انظر: محمد أمين شيخو، تأويل القرآن العظيم جزء عم، ص 115؛ وعبد الرحمن جنبكة الميداني: معارج التفكر ودقائق التدبر، ج1، ص601.

(6) جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور ص101.

(7) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص 3964، بتصرف.

(8) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ح1773/1 كتاب: الزهد، باب ما جاء في الخوف والرجاء عن أبي مزينة الدارمي وقال الهيثمي رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح، وانظر السلسلة الصَّحِيحَة للألباني رقم 2648.

(9) تفسير الإمام الشافعي: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ).
جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه).
دار التدمرية – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1427 – 2006م، ج3/ص1461.

(10) ابن عاشور، ج30/ ص 528.

(11) انظر، ابن عاشور التحرير والتنوير، ص 528، وانظر فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب85/32

(12) الحديث ونصه في صحيح البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه

منها رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره، لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل). ثم قرأ هذه الآية: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}.صحيح البخاري 47- ك/المساقاة 6-باب إثم من منع ابن السبيل من الماء ح2230.

(13) انظر، فخر الدين الرازي، ج32/ص 278

(14) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، [628] (437/1).

(15) أخرجه مسلم كتاب المساجد، مواضع الصلاة، باب التغليظ في تفويت صلاة العصر، [626](435/1).

(16) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر، [2527] (950/2).

(17) الرازي، مفاتيح الغيب 32 /85، 86 وذكر هذا الرأي الزمخشري في الكشاف 793/4 وابن عطية في المحرر الوجيز 8 /520 والإمام الخازن في تفسيره 4 /288، وأبو حيان في البحر المحيط 8 /509 والجمل في حاشيته على تفسيره الجلالين 582/4، والشوكاني في فتح القدير 5 /491 والنسفي في تفسيره 375/4

(18) انظر، الرازي مفاتيح الغيب المرجع نفسه

(19) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة بعد العصر قبل الغروب، [532] (204/1).

(20) الألوسي: روح المعاني، ص 228، وانظر، ابن عاشور في تفسيره 30 /530.

(21) إرشاد العقل السليم 901/5 وذكر هذا الرأي الإمام الخازن في تفسيره وبين أن القسم بزمانه صلى الله عليه وسلم: "لأنه أفضل الأزمان وأشرفها" (لأنه أفضل الأزمان وأشرفها 4 /288 وأورده الشوكاني في فتح القدير 5 /491.

(22) محمد عبده، تفسير جزء عم، ص 156.

(23) انظر دواوين الشعر العربي على مر العصور، العصر العباسي، قصيدة للإمام الشافعي، برقم(14306)، ج9/ص254، وانظر ديوان الامام الشفعيج1/ص106.

(24) انظر البحر المحيط لأبي حيان 8 /509 والمحرر الوجيز لابن عطية، وتفسير الخازن 4 /288، وفتح القدير للشوكاني 5 /491.

(25) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت: 139هـ)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان، (1415 هـ- 1995 م)، ج9/ص89.

(26) محمد عبده، مرجع سابق، ص 156.

(27) لسان العرب لابن منظور 1156/2 والمصباح المنير للفيومى 78/1.

(28) جامع البيان للطبرى 187/30 ومعالم التنزيل للبغوى 620/5 ومعاني القرآن للفراء، 289/3 وفتح القدير للشوكاني 5 /491.

(29) الألوسي، روح المعاني، 458/15، وانظر ابن عاشور التحرير والتنوير 532/30.

(30) عبد الرحمن حبنكة الميداني، مرجع سابق، ص 608.

(31) الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، 280/32.

(32) ابن عاشور، مرجع سابق، ص 532.

(33) انظر، ابراهيم مصطفى ورفاقه، المعجم الوسيط، ج1/ص28.

(34) المرجع نفسه

(35) الألوسي: مرجع سابق، ص 229.

(36) محمد عبده، مرجع سابق، ص 156.

(37) انظر ابو السعود، ارشاد العقل السليم، مرجع سابق، 197/9، وذكره الألوسي، مرجع سابق، ص 228،

(38) ابن عاشور، مرجع سابق، ص 532، وانظر الألوسي، مرجع سابق، ص 228.

(39) مفاتيح الغيب، ج32/ص280.

(40) الألوسي، مرجع سابق، ص 228.

(41) عبد الرحمن حبنكة الميداني، مرجع سابق، ص 613.

(42) انظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30/ص532 وما بعدها

(43) عائض القرني، مرجع سابق، ص 60.

(44) محمد عبده، مرجع سابق، ص 157.

(45) الألوسي، مرجع سابق، ص 229.، وانظر أبا السعود، مرجع سابق، 197/9.

(46) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب حفت النار بالشهوات، حديث رقم (6487)، ج4، ص 206-207.

(47) انظر، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج30/ص533وما بعدها.

(48) رواه الترمذي في سننه وقال حَدِيثٌ حَسَنٌ، باب، ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج4/ص468.

(49) الرازي، مفاتيح الغيب، ص282/32.

المصادر والمراجع

ابن الجوزي م(1385)، زاد المسير في علم التفسير، ط1 بيروت المكتب الإسلامي، 1965 م.

ابن عاشور، م.(1984)، التحرير والتنوير، (د.ط)، تونس: الدار التونسية للنشر.ص227–237.

ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن كثير، ع. (1994) تفسير القرآن العظيم، ط1 دمشق: مكتبة دار الفيحاء، الرياض: مكتبة دار السلام.ص709–715.

أبو داود، سنن أبي داود، ط(د.ت) بيروت، المكتبة العصرية.

الألباني، م.(1984) شرح العقيدة الطحاوية، ط8 لبنان: المكتب الإسلامي.ص333_337.

الألوسي، ش.(د.س) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، بيروت: دار إحياء التراث العربي.ص227–235.

الأندلسي، م.(1993) تفسير البحر المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية. ص 507–5012.

البخاري، م. (1987) صحيح البخاري، ط3 دمشق: دار ابن كثير.ص204_206 وص950.

براهيم مصطفى ورفقاؤه، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، دار احياء التراث العربي.

البقاعي، ب.(1995) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ط1 بيروت: دار الكتب العلمية. ص522–523.

الترمذي، م.(1975): سنن الترمذي، ط2 مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

الخطيب الشربيني، السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلمات ربنا الحكيم الخبير ط 2 بيروت، دار المعرفة (د.ت).

الدّرة، م.(1991): تفسير القرآن الكريم وإعرابه، منشورات ط1دمشق: دار الحكمة. ص445_446.

الرازي، م.(1981)، مفاتح الغيب الشهير بالتفسير الكبير، لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر، ص277–282.

الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ط بيروت دار المعرفة (د.ت).

الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ط1 عالم الكتب(1408 ه).

السمين الحلبى، الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، ط 1، دمشق دار القلم (1407).

السيوطي، ج.(1403 ه). الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، ط دار الفكر.

السيوطي، ج.(1404ه).تناسق الدرر في تناسب السور، سوريا: دار الكتاب العربى.

الشافعي، ديوان الإمام الشافعي.

الشنقيطي، م. (1995)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت – لبنان.

الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير، ط1 البابى الحلبى سنة 1350 ه.

شيخو، م.(د.ت) تأويل القرآن العظيم جزء عم، ط1 دمشق: مكتبة البشير.

الطبري، جامع البيان فى تفسير القرآن، القاهرة، دار الريان، ط(1407).

عبده، م.(1985) تفسير جزء عم، ط1 بيروت: دار ومكتبة الهلال. ص156_157.

العثيمين، م.(1998): تفسير جزء عم، ط1 الرياض: دار الثريا.

الفراء، معاني القرآن ط بيروت، دار السرور.

الفوزان، ص.(2002) شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط6 السعودية: إدارة البحوث العلمية. ص.164.

القرطبي (1987) الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

القرني، ع.(2004) اللؤلؤ المكنون في تفسير جزء (عم يتساءلون)، ط1 لبنان دار ابن حزم ص49–60.

قطب: س.(1998) في ظلال القرآن الكريم، ط2 جدة: دار العلم. ص3964_3975.

الميداني: ع.(2001) معارج التفكير ودقائق التدبير، تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، ط1 لبنان: دار القلم.ص601_6013.

الناصري، م. (1985) التيسير في أحاديث التفسير، ط1 لبنان: دار الغرب الإسلامي.

النيسابوري، ن.(1980) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، د. ط لبنان: دار الكتب العلمية.

النيسابوري، م. (1991) صحيح مسلم، ط1 القاهرة: دار الحديث.ص235_237.

ياسين، م. (1985) الإيمان: أركانه، حقيقته، نواقضه، ط4 مكتبة الرسالة: الأردن.

Sunat Allah In his creation As Depicted in *Surat al-'Asr*

Yusra A. Al-Yabroudi*

ABSTRACT

The researcher has chosen *Surat al-'Asr* as a subject of this research since it includes great meanings and morals related to the science of religion. It started with oath by time which passes of everyone's age. It talked about the great loss which is a result of being careless about our ages and ignorance while we should fill our times with faith, good deeds and encouragement for truth and patience.

Keywords: *Surat al-'Asr*, Sunah, Good Deeds.

* Faculty of Sharia, The University of Jordan. Received on 30/6/2016 and Accepted for Publication on 1/8/2016.